العدد(1432) السنة السادسة - الاربعاء (11) شباط 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

العربية

مفتي مصر: الشيعة طائفة متطورة ولا حرج من التعبد على مذاهبها

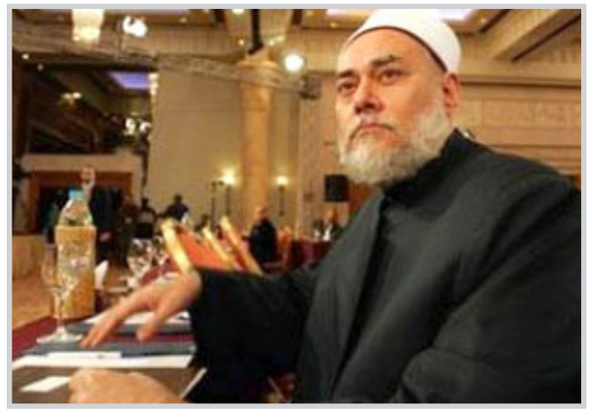

القاهرة/ عمر عبد الجواد

أعلن مفتي مصر علي جمعة تأييده التام للتطورات التي حدثت لدى الشيعة في عام ٢٠٠٨، فيما يبدو إشارة إلى الدراسات الشيعية التي دعت لمنع سبّ الصحابة على المنابر. وأكد جمعة أنه: علينا الاعتراف بما تحرزه هذه الطائفة من تقدم يُمَكننا من التعاون معها في الوقت الحالي، مؤكدا أنه: لا حرج من التعبد على مذاهبها، فلا فرق بين سني وشيعي.

وقال في حوار مع «العربية.نت»: إن الشيعة بطبيعتها طائفة متطورة، وهم يُسلّمون بذلك، باعتبارهم الواقع جزءا لا يتجزأ من فقههم، ولكن هناك من ينقّب في الكتب الشيعية القديمة، ويخرج علينا بالخلافات، وهذا خطأ جسيم.

واتهم من يقوم بذلك بالسعي لتدمير العلاقات بين السنة و الشيعة لخدمة أغراض أخرى هدفها تفتيت وحدة المسلمين والإضعاف من شأنهم لتسهيل تنفيذ المخطط الذي تم الإعداد له منذ فترة طويلة.

وكان كبار علماء الشيعة أكدوا -في العام الماضي، خلال ندوات ومؤتمرات- أن لعن الصحابة والخلفاء الراشدين، خصوصاً أبي بكر وعمر، وأم المؤمنين السيدة عائشة، ليس من المذهب الشيعي، وأنها أمور دخيلة قديمة، ليس لها وجود في الكتب الشيعية المعتبرة.

وقال مفتي مصر: إنه يجوز التعبد بالمذاهب الشيعية ولا حرج، وقد أفتى بهذا شيخ الأزهر الراحل محمود شلتوت، فالأمة الإسلامية جسد واحد لا فرق فيه بين سني وشيعي، طالما أن الجميع يصلي صلاة واحدة ويتجه لقبلة واحدة.

وأضاف أنهم كانوا دائماً جزءاً لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، لكنهم يشكلون أقلية لا تتعدى نسبتها ١٠٪ من إجمالي عدد المسلمين.

قنطرة Qantara.de حوار مع العالم الإسلامي

قضايا الاندماج في هولندا:

أخطار الشعبوية ... أوهام التعددية الثقافية

ابن لأسرة مغربية مهاجرة وكاتب صحفي ينتقد الازدواجية الأخلاقية داخل المجتمع الهولندي والتعامل من دون تسامح مع المهاجرين المسلمين باعتباره نتيجة لتنامي اليمين السياسي في هولندا أريان فاريبورز تحدّث إلى عزيز عينان.

يقول عزيز عينان رأيه بكل صراحة عندما يتعلّق الأمر بموضوعات يدور حولها في المجتمع الهولندي جدال حاد، مثل مفهوم الهجرة الفاشل وتنامي اليمين السياسي يبدو عزيز عينان مليئًا بالنشاط؛ حيث تتراكم في بيته الصغير الكائن في شارع كورته برينسينغراخ في وسط أمستردام فوق طاولة مكتبه وفوق الأرض العديد من مخطوطات كتابه الجديد.

أريان فاريبورز
ترجمة: رائد الباش

ويسرع في ترتيب هذه المخطوطات، ثم يحمل مخطوطًا ويشير إلى عنوان الكتاب: «معركة وذكريات أخرى» – Veldslag en andere herinneringen، وهذا الكتاب ليس كتابًا تاريخيًا، كما أنّه لا يتحدّث عن إي ذكريات لهذا الكاتب المغربي الشاب؛ بل يتحدّث عن قصص قصيرة من حياته في هولندا – قصص تحكي عن صعوبات الاندماج الكثيرة الخاصة بهذا المغربي الذي نشأ لأسرة مهاجرة من الجيل الثاني والخاصة بأسرته وذلك من خلال وجهة نظر شخصية للغاية.

وعزيز عينان يعدّ واحدًا من بين المغاربة القلائل الذين نشأوا في هولندا وصاروا يعملون في الكتابة والصحافة. وعزيز عينان الذي وُلد في مدينة هارليم Haarlem الهولندية الصغيرة يكتب بانتظام أعمدة صحفية وتعليقات لصالح صحيفة «Hat Parool» الديمقراطية الاشتراكية والمجلة الثقافية «Contrast» حول موضوعات الهجرة والتعدّدية الثقافية، بالإضافة إلى الحوار والإسلام.

ما هو التسامح؟

مجرّد تسامح فاتر مع الهجرة؟ مراسيم التجنيس في «Grote Kerk» في مدينة لاهاي وتختلط في مقالات وكتب عزيز عينان المرارة وعدم الانتساب إلى المجتمع الهولندي على أرض الواقع بعد هذه الأعوام الطويلة واعتباره غير مندمج أو عدم القبول به؛ وذلك على الرغم من أنّ هولندا كانت تشتهر طوال عقود من الزمن بتسامح مجتمعها تجاه المهاجرين القادمين من العالم الإسلامي وكذلك بعدم التضييق عليهم، إذ إنّ سياسة هولندا إزاء الجاليات كانت قدوة بالنسبة لدول المهجر الأخرى في أوروبا.

يقول عزيز عينان: «يزعم البعض باستمرار أنّ الهولنديين متسامحون»، ويضيف: «ولكن ما هو التسامح؟ هل يعني التسامح أن لا يتكلّم المرء مع الآخر بأي شيء؟ أعتقد أنّ التسامح الهولندي هو أن لا يتحدّث المرء مع الآخر بأي شيء، ولكن التسامح يعني شيئًا آخر وهو أن تكون على استعداد للاعتراف لشخص آخر بمكانه في حياتك».

وهذا الصحفي المغربي الشاب ذو الأصول البربرية يستخدم كلمات قاسية للتشهير بمفهوم التعدّدية الثقافية الذاتي الخاص بالمجتمع الهولندي، وكذلك بوهم «التعايش المنسجم» الذي كثيرًا ما يتم التأكيد عليه، ولكن في الواقع لم يتم تطبيقه قطّ، بل يتم تقديمه حتى يومنا هذا باعتباره مجرّد واجهة أمامية.

مجتمع ساخر ومجتمع مواز

يقول عزيز عينان: «من الصعب أن يعيش المرء في الحقيقة حياة متعدّدة الثقافات»، ويضيف: «ولكي ينجح في ذلك يجب عليه أن ينفتح ويكون أيضًا على استعداد من أجل التخلي عن عادات وتقاليد محدّدة وأن يجد حلولا وسطية ولكني لا أعرف أي مثال يشير إلى أنّ الناس هنا كانوا أيضًا على استعداد لذلك، فبدلاً من ذلك قلّل المرء من حجم تعايش الثقافات المتعدّدة وخفضه إلى سخرية خرسانية وأمر سطحي. وذلك طبقًا لمفهوم: (أنت مغربي وأنا هولندي – كم هو مضحك هذا الشيء!) فلماذا يا ترى ينظرون إلى التعدّدية الثقافية على هذا النحو وكأنّ كل شيء يحدث ضمن حفلة ساخرة- الحال ليست على هذا النحو في أي بلد آخر».

ولكن لم يكن من الممكن على أبعد حدّ في نهاية التسعينيات أن يُغضّ الطرف عن الشقوق الواضحة في هذه الواجهة الأمامية؛ ويتجلّى ذلك على المستوى التعليمي السيئ أكثر من المتوسط العام ونسبة البطالة المرتفعة لدى المهاجرين، بالإضافة إلى العنف المتزايد لدى الناشئين الأجانب والمغاربة في البؤر الاجتماعية مثل حي سلوترفارت Slotervaart – هذا الحي الذي كان في السابق حيًا للأثرياء، بيد أنّ الهولنديين تخلوا عنه منذ عدّة عقود من الزمن وصار القسم الأعظم من سكانه في يومنا هذا من المهاجرين.

وحاليًا يهتم هذا الصحفي والكاتب ذو الثمانية والعشرين عامًا بالسؤال حول سبب تخلي المجتمع الهولندي في فترة زمنية قصيرة نسبيًا عن تعامله الليبرالي مع الهجرة والمهاجرين. فالمملكة الهولندية كانت تحظى حتى نهاية التسعينيات بسمعة حسنة باعتبارها ثاني أسخى بلد فيما يخصّ شؤون الهجرة والمهاجرين بعد الولايات المتّحدة الأمريكية.

التعبئة الشعبوية

رائد تحوّل المواقف السياسية لدى الرأي العام الهولندي – الشعبوي اليميني بيم فورتين

يقول عزيز عينان: «أنا أهتم في موضوعاتي بإيجاد سبب تحوّل النقاش الخاص بالتعدّدية الثقافية بسرعة إلى نقاش سلبي»، ويتابع قائلاً: «إذا تصفّح المرء الصحف الصادرة قبل خمسة عشر عامًا فعندئذ سيجد لهجة مختلفة تمام الاختلاف في هذا الجدال، فهل يعود سبب ذلك إلى أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أم إلى اغتيال المخرج الهولندي تيو فان غوخ والشعبوي اليميني بيم فورتين Pim Fortuyn؟».

وعزيز عينان يشكّ في ذلك. ويقول إنّ مجتمع الأكثرية الهولندي كان يضمر طيلة كل الأعوام السابقة مختلف أحاسيس العزل وأحيانًا أحاسيس رفض المهاجرين.

ويقول: «لقد بدأ هذا التحوّل قبل الاغتيالين – وتحديدًا في اللحظة التي تحتّم فيها على المجتمع الإقرار بأنّ تصوّره عن الحياة ذات الثقافات المتعدّدة كان مجرّد وهم. وثم جاء بيم فورتين الذي ابتدأ الجدال وفتح الأبواب لشعبويين يمينيين مثل ماركو باستورس Mrco Pastors وغيرت فيلدرز Geert Wilders وريتا فيردونك Rita Verdonk»، وتزداد أهمية عزيز عينان لأنّه يتّخذ موقفًا واضحًا في هذا الجدال من خلال تعليقاته ومقالاته – ضدّ الصورة المعادية للإسلام والتي يتم التأكيد عليها مرارًا وتكرارًا من قبل السياسيين الشعبويين اليمينيين وتنامي الكراهية تجاه المسلمين في الصحافة الهولندية.

ويقول عزيز عينان متسائلاً: «في وسائل الإعلام يتحدّثون فقط حول الإسلام. ألا يمكن إيقاف ذلك؟». ولكنّه يضيف بسرعة: «أجل، صحيح أنّه توجد في مجتمعنا مشكلات مع المسلمين، بيد أنّ سيطرتهم على الصعوبات التي تواجههم ومشكلاتهم ضمن مبادراتهم الخاصة تبقى إلى حين من شأنهم. فدعونا نبدأ في فعل ذلك».

ولكن بدلاً من ذلك لا يتم دائمًا سوى التحذير من خطر الإسلامويين المتطرّفين وتنظيم القاعدة وما شابه ذلك. ولكن الخوف دليل سيّئ، مثلما يرى عزيز عينان: «أتساءل إن كان هذا في الحقيقة ضروريًا في تعايش الناس اليومي. فهل هذا ضروري بالنسبة لنا؟ دعونا نبدأ مع الإمام الموجود في حيّنا، دعونا نتحدّث معه ميدانيًا حول الصعوبات، إذا كنّا نريد حقًا حلّ المشكلات بشكل جاد».

وعزيز عينان يرى فقط في الحوار المستمر مع ممثلي الجمعيات المسلمة ومع المثقفين فرصة حقيقية من أجل إصلاح العلاقة الصعبة مع مجتمع الأكثرية الهولندي، شريطة أن لا يتم استنزاف الحوار في لقاءات سطحية وشكلية – مثلما كانت الحال في السابق مع موضوع التعدّدية الثقافية في هولندا.

باب المتوسط

عن قريبنا محمد الذي هرّبه أهله من جنتهم

يوسف بزي

-١-

اختفى الشاب محمد من المنزل، إبن الثامنة عشرة الذي كان في حرب تموز ٢٠٠٦ مجرد تلميذ لطيف، يقضي معظم وقته في الضجر الريفي واللهو المدرسي، اختفى من بيته، والأهل الذين فاجأهم غيابه المباغت أدركوا سريعاً السبب، طالما انهم هناك في بنت جبيل كما في سائر القرى الجنوبية اللبنانية، باتوا يعلمون ويشهدون على نحو متواتر الى أين يذهب فتيانهم ويغيبون.

أبناء القرى والبلدات، الذين يتواورن فجأة عن الانظار، ويتركون منازلهم في ساعات الفجر والناس نيام، يذهبون للانضواء في كنف «حزب الله» ملتحقين بمعسكراته التدريبية داخل لبنان وخارجه.

لم يكن لاختفاء الشاب محمد مقدمات فهو، حسب قول أهله، لم تبدُ عليه علامات التحول المعروفة للذين يتأثرون بأدبيات وسلوكيات مجتمع حزب الله. إذ ظلّ على تدينه التقليدي من غير الامتناع عن مصافحة النساء مثلاً أو إطلاق النكات غير المهذبة، أو الإنغماس في ألعاب الكمبيوتر لساعات عدة، أو تزجية الوقت مع الشبان الآخرين في ساحة البلدة ظل محمد كما عهدته أسرته في ملبسه، كأن يضع حوافي قميصه طي البنطلون لا فوقه، وظل أيضاً يحلق ذقنه ويستمتع بمشاهدة المسلسلات التلفزيونية وأغاني الفيديو كليب العربية.

لم يلحظ والداه فيه اهتماماً بالقراءة السياسية مثلاً أو متابعة دؤوبة للأخبار أو مثابرة على أنشطة حزبية، لم يجلب مثلاً أصدقاء جدداً الى بيته، لم تتغير لغته وانفعالاته وأفكاره كما يحدث عادة مع الذين ينضمون الى اي حزب، وحزب الله خصوصاً.

ومحمد الذي عرفته في صيف الحرب قبل سنتين ونصف السنة يضع مقوّماً للأسنان، ضحوكاً مهذباً، ظل هكذا حتى يوم اختفائه المدبر، راحلاً من مراهقته الخجولة الى فتوة السلاح والاستعداد للحرب دفعة واحدة.

يقول أهل البلدة ان الكثيرين من أقران محمد يلتحقون بأعداد متزايدة في صفوف قوات حزب الله العسكرية، وهو ما عاد التحاقاً حزبياً، انتقائياً، كما كان الامر في السابق، إذ لم يعد الانتساب الى حزب الله خياراً «عقلانياً» يعرّج فيه المنتسب في مسالك الشروط المتشددة والادلجة المتزمتة والتثقيف الصارم والالتزام المسلكي والديني والفكري، بل بات على ما يبدو مفتوحاً وعمومياً ـ إذا صح التعبير ـ ويلبي طموح حزب الله الى عسكرة أهل الجنوب وتعبئتهم من ناحية، كما يلبي رغبة هؤلاء الشباب العاطفية في ان يكونوا على مثال أبطال وبطولات حرب تموز ٢٠٠٦، وان يكونوا من «شعب النصر الالهي»، ما يترجم الاندماج شبه الكلي بين جسم حزب الله وجسم الطائفة الشيعية.

وأسرة محمد البنت جبيلية المتعاطفة على الدوام مع حزب الله، والملتزمة بـ«تقليد» المرجعية السيد محمد حسين فضل الله في كل شؤونها وطقوسها، أصابها الفزع والسخط من قرار إبنها وفعلته.

وبانتظار عودته، راح الأب يدبر «فيزا» سفر لابنه الى أميركا، حيث أخواته المتزوجات وأبناء عمومته وعماته وأقاربه الكثيرون الذين يعيشون، إما في بروكلين أو نيوجرسي او ميشيغان تدبير السفر هذا هو نفسه الذي لجأ إليه والده فيما مضى لـ«تهريب» الإبن الأكبر علي، ليجنبه التجنيد الإجباري في صفوف الميليشيات المتعاملة مع اسرائيل قبل العام ٢٠٠٠.

عاد محمد من الدورة التدريبية متفرغاً للعمل العسكري في صفوف حزب الله رافضاً ان يقبض راتبه الشهري (نحو ٤٠٠ دولار) متبرعاً به لأيتام الحزب، معبراً بذلك عن حماسته وإيمانه وعاطفته المستجدة عاد الى بنت جبيل جاهزاً للقتال. لكنه لم يمكث طويلاً ولم تسنح له فرصة الاشتراك في معركة، إذ أجبرته العائلة على الرحيل الى أميركا (بلاد «الشيطان الاكبر»! حسب لغة حزب الله) عاملاً هناك في محطة وقود يملكها أحد الأقارب، حيث عليه ان «يبدأ في تكوين مستقبله» كما تقول والدته، التي لا تشاهد طول النهار والليل سوى تلفزيون «المنار» الحزب اللهي.

-٢-

في الطريق الى الجنوب، تضاءلت صور ويافطات الحزب اللهية، فيما لم يبق من الدمار العظيم والعميم سوى آثار متفرقة وقليلة. الجسور عادت منتصبة والطرقات معبدة، مزفتة، ومسحة الجدّة طاغية على الاسفلت وحوافي الجسور وأعمدتها، لا ركام ولا بقايا قصف، كأن الحرب تم مسحها بخرقة هائلة عن سطح الجغرافيا، مكنسة عملاقة أزالت غبار المعارك، ولم يبقَ شيء منها سوى في الزوايا الضيقة من الأمكنة، والأزقة المعتمة من النفوس، حيث لا يطولها النظر.

تناقصت علامات الحرب وتناقصت معها أيضاً الرايات واليافطات والصور التي غمرت الجنوب بألوانها الصفراء والخضراء طوال أكثر من سنتين، وتبدى المشهد عن قرى وبلدات يظن المرء أنها وجدت وشيدت وسكنت للتو لشدة حداثتها وجدتها، كأن الجنوب أرض بكر وفد عليها السكان الآن وبنوا بيوتهم عليها لأول مرة. إنه انجاز مدوّخ بسرعته وقوته، فعلى قدر سرعة التدمير وفعاليته في صيف ٢٠٠٦، كان الترميم والتشييد، بل وكأن الخراب كان فرصة للتخلص من بقايا العمران الفقير والعشوائي والمتقشف، عدا عن التخلص من بقايا الهندسة الريفية القديمة، الفلاحية الطابع، طالما ان السخاء في التعويض، والبذخ الذي أبدته الجهات المانحة او الملتزمة بإعادة البناء، أديا الى بناء بيوت هي اقرب الى الفيلات الحديثة، وفق مواصفات لا تنقصها الفخامة والخطوط الحديثة والهندسة الرفيعة، التي توائم التصورات السياحية وشروط السكن الهانئ. يمكن القول إن حدثاً عمرانياً تحقق في الجنوب، اذ أن منازل القرى والبلدات كانت تبنى على الأغلب من غير تصميم هندسي ومن دون الاستعانة بمهندسين، وكان اصحابها يعمدون الى شراء ارخص مواد البناء وأقلها كلفة، بل أن الكثير من البيوت الباطونية كانت تترك من دون طلاء خارجي وتكون فيها مساحة الصالون مثلاً مساوية لمساحة المطبخ.. الخ. كان هذا هو الطابع العام الطاغي على العمران الجنوبي. ومن أجل التمايز والتشاوف والتدليل على الارتقاء الاقتصادي والمادي، كان المغتربون يعمدون الى بناء الفيلات، المبالغة في التذويق والتضخيم والزخرفة، على تلال القرى وعلى الروابي المشرفة على الطرق من أجل إظهارها وإشهارها على العامة من السكان كعلامة لا تدحض على النجاح والثراء، بل كانت المبالغة في فخامة الفيلات غالباً ما تأتي من الذين اشتهروا بفقرهم المتوارث وعصاميتهم وكدحهم في بلاد الاغتراب، فكانوا يعمدون الى الاسراف في صرف جزء مهم من ثرواتهم الجديدة على بناء قصورهم وفيلاتهم، محواً لذاكرة فقرهم من أذهان السكان.

كان هذا هو الحال قبل عام ٢٠٠٦، أما بعده، اي بعد الحرب، فقد نال أهل الجنوب وأصحاب البيوت المدمرة فرصة ليبنوا منازلهم الجديدة، مع توافر الأموال والمنح والتبرعات والرعاية من دول وجهات رسمية وحزبية، وفق أفضل الشروط الهندسية وبأحسن المواد وبإشراف معماريين ومقاولين محترفين.. ما جعل الجميع يشعر أنه يقتني بيتاً فخماً، فيلا صغيرة أو كبيرة تليق بمجتمع ينعم بالرفاه والوفرة. هذا الحدث العمراني ليس فقط في نوعية البناء وطرازه، انما ايضاً في تحولاته الوظيفية، فالبيوت المسكونة هي التي شُيدت خارج القرى، اي على التلال والروابي والمرتفعات. اغلب السكان ما عادوا يودون السكن في نواة القرية وقلبها، بل باتوا يهجرونها الى حوافيها العليا والى المطلات والقمم، فمنازلهم أصبحت للاصطياف والعطل أكثر مما هي للعيش والسكن.. والكل سواسية ولا فضل لمغترب على مقيم.

ومن أثر حال «النهضة» العمرانية التي تولاها حزب الله وأدارها، وساهمت فيها دول عربية من غير تلكؤ او بخل، (عدا سورية التي لم تف بعد بما تعهدته في قريتين أو ثلاث)، أنَ اقتنع الناس او اقنعوا انفسهم بفكرة شائعة مفادها: أن الذي بذل كل هذا الجهد والمال لا يعقل أن يذهب بنا الى حرب جديدة، أو «لا يعقل أن يسبب خراباً جديداً»، وأن حزب الله لا يريد ابداً الحرب مرة أخرى، وهم في إلحاحهم على تكرار تلك الفكرة كأنهم يرفعون عن كواهلهم قلقاً لا يتزحزح لشدة ثقله وقوة ظله، كأنهم يطوون تحت كلامهم فكرة أخرى هي: «ما الذي يحول دون تكرار الحرب؟» وهم في أحاديثهم راحوا يساجلونني بأن اسرائيل «تعلمت درساً»، فأسألهم عن الدرس الذي تعلموه هم ايضاً، ليس فقط من جراء تجربتهم مع حزب الله، ومع الاحتلال الاسرائيلي، بل ايضاً مجمل الدروس السابقة منذ أيام «فتح لاند» و«الحركة الوطنية» (حروب ١٩٦٩-١٩٨٢)، فيردون هكذا بأن السيد حسن نصرالله كان على حق في إعلانه «ان اسرائيل أوهى من بيت العنكبوت» وهكذا دواليك. إنهم يخافون الحرب ويؤيدون حزب الله في وقت واحد.

-٣-

قالت عمتي إن علاج ضغط دمها المرتفع هو أن تتناول حبتي دواء وأن لا أظهر أنا على التلفزيون منتقداً حزب الله. كانت بأسلوبها الحنون تبلغني استياءها من مواقفي السياسية المعلنة، فيما أظهر اهل البلدة تجاهي نوعاً من الجفاء، وأقاربي قالوا إن الواحد منا «لا يخرج من جلده»، قاصدين أنه لا يجوز لي ان اتبع هواي في الأفكار والسياسة بل يجب عليّ الالتزام بموقف ملّتي، أما عمي فأخذني بحنكته إلى زيارة ضريح أبي، وهناك طلب مني مرافقته الى «روضة الشهداء» (شهداء حرب ٢٠٠٦) المهيبة والوقورة، دلني وعرفني على كل شهيد ومكانته وسيرته، في طريق العودة قال لي فجأة إنه لا يجوز انتقاد حزب الله والسيد حسن نصرالله، «إنه منزّه.. إنه برتبة القداسة»، أعلنها بنبرة هادئة وحاسمة، أما عن الخطأ في التقدير لما حدث في ١٢ تموز ٢٠٠٦ فساواه بخطأ التقدير للنبي المعصوم يوم معركة أحد حين انهزم المسلمون قبل ١٥٠٠ سنة. فسكتّ سكوت المستسلم بعيداً عن مسألة القناعة أبلغني أن العائلة لا يسعها حمل وزر آرائي، ثم رجاني أن لا أتجول في ساحة بنت جبيل.

مع كبايات الشاي المخمّر جيداً في ساعات العصر، يبدأ تبادل الأحاديث، حين يكتشف المرء كيف يميّز الناس في الجنوب بين حزب الله المقاومة وحزب الله في السياسة الداخلية، يقيمون فاصلاً بينهما فهم يعزون ما حدث في ٧ أيار ٢٠٠٨ (هجوم حزب الله وحلفائه على بيروت) الى «تعدي أهل الطريق الجديدة على الناس والمارة». هذه هي الخبرية الوحيدة التي لديهم عما جرى، أما أحداث هجوم حزب الله وحلفائه على بيروت فينسبونها (ولا نتبنى هنا كلامهم) الى «زعران حركة أمل وحزب البعث والقوميين» (بالحرف). إنهم يحذفون مشاركة حزب الله حذفاً كاملاً، بل وعند تناول التفاصيل في السياسة تراهم مثلاً لا يحبذون ما يبدر عن محمد رعد مثلاً، منتقين محمد فنيش بأنه هو الممثل الجيد لحزب الله. أسأل الجالسين، وهم من سكان الضاحية الجنوبية أيضاً، عن دكاكين التخابر الدولي فيؤكدون كثرتها وعدم شرعيتها، في معرض تناولنا لأسباب قرار الحكومة الذي أدى الى غزوة ٧ أيار.

أخبرهم أن الليلة سيبث فيلم محمد سويد «ما هتفت لغيرها» على قناة «العربية»، وهو يتناول خرافة تحويل لبنان الى «هانوي العرب» وكيف أن هانوي ما عادت تريد سوى أن تكون على مثال هونغ كونغ، وأن ما بين بيروت وهانوي هناك دبي، وأن خياراتنا بين الحرب والسلم وهونغ كونغ ودبي وهانوي الجديدة باتت عبارة عن فرص ضائعة.. فيجيبون إنهم لا يحضرون «العربية» ولا يطيقونها لأنها «تبث السموم».

-٤-

في الطريق، وضعوا صورة ضخمة لرئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري وكتبوا تحتها «يا ويلنا من بعدك يا دولة الرئيس». لم أعرف ما القصد من هذه الصرخة الملتاعة؟ هل هي الخوف المبكر من الآجال المحتومة لكل كائن بشري؟ هل هي إعلان اعتباطي أن الناس من دونه لن يدبروا شؤونهم ولن يكون لهم شوكة كما لديهم الآن بمعيته ورعايته، وأنهم من بعده سيكونون عاجزين ضائعين لا حول لهم ولا قوة؟ هل القصد إنه الآن يحميهم من شرور لا تحصى تحيط بهم وأنه هو وحده الذي يدرأها عنهم؟ هل هي صرخة قاصرين ما زالوا بحاجة لأبوة؟ لم أعرف على وجه الدقة سبب تلك العبارة الملتاعة، إلا بعد أن رأيت صورة أخرى للرئيس بري عند مدخل قرية ثانية كتب تحتها «هل من نظير»؟ وهو سؤال يضمر جوابه فيه «كلا، لا نظير». فأعجبتني جداً تلك الفكرة «لا نظير له».

في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، في طريق العودة، أدار السائق الراديو على «إذاعة النور» التابعة لحزب الله، والخبر الأول «نجاح كبير للمعارضة (٨ آذار) في انتخابات المحامين»، ثم بعد نصف ساعة وعلى «إذاعة صوت لبنان» التابعة لحزب الكتائب، جاء الخبر «فوز الموالاة (١٤ آذار) بانتخابات المحامين»، فضحكنا كلنا في السيارة.. الخبر نفسه خبران، كل حسب إذاعته وعليك أن تختار إذاعتك، فتختار أخبارك وتأنس إليها. كل جماعة في لبنان معتصمة بأخبارها، أما الكذب فمن اختصاص الشعراء ومن يتبعهم من الغاوين.